مجلة علمية دولية محكمة نصف سنوية
تصدر عن مخبر الدراسات النقدية والأدبية المعاصرة بتيسمسيلت/الجزائر
ISSN 2571-9882 EISSN 2600-6987
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/297
Contemporary Studies is a bi-annual open access International double-blind journal. It is published by the University of Tissemsilt, Algeria.
المجلد :06/ العـدد:02 / ديسمبر (2022)، ص.169/159

التَّرجمة الغيرية شعرا
قصيدة "دفع الرّيب عن عرض أمير العرب" للشّاعر جمال الدّين عبد الهادي أنموذجا.

Altruistic biography poetry
The poem of removing doubt from the honor of the Arab prince by Gamal al-Din Abdul Hadi as a model

د طيبي بوعزة
ibrahimbouaza@gmail.com
جامعة أحمد بن يحي الونشريسي -تيسمسيلت
(الجزائر)

تاريخ الاستلام: 2022/08/17 تاريخ القبول: 2022/09/23 تاريخ النشر: 2022/12/02

ملخص:
يُعدُّ النَّثر الشَّكل الأنسب لكتابة السّيرة أو التَّرجمة سواء كانت ذاتية أو غيرية، نظرا لحجم المساحة التي يُتيحها لكاتبها، فالكتابة عن حياة بتفاصيلها وتشعُباتها ومحطَّاتها يتطلَّبُ بياضا كثيرا، وهو ما لا تسمحُ به طبيعة الشّعر، ومع ذلك يُمكن لهذا الأخير أن يجعل من التَّرجمة الغيرية موضوعا له، مُعتمدا في ذلك على التَّكثيف والإيحاء والرَّمز والاقتصار على أبرز المحطَّات التي يعرضُها على المتلقي في عُمومها ويتركُ له مسألة البحث فيها والتَّعمُّق أكثر، فما هي الاستراتيجية المتَّبعة لدى المبدع للتَّرجمة الغيرية شعرا؟ هذا ما تسعى إليه هذه الورقة البحثية والتي اتَّخذت قصيدة "دفع الرّيب عن أمير العرب" للشّاعر "جمال الدّين عبد الهادي" أنموذجا لها.

كلمات مفتاحية: التَّرجمة الغيرية.، الأمير عبد القادر.، الوقائع التَّاريخية.، جمال الدين عبد الهادي.

Abstract:
Prose is the most appropriate form for writing a biography due to the size of the space available to its writer. Writing about a life with its details, ramifications, and stations requires a lot of whiteness, which is not allowed by the peculiarities of the poem, which can make altruistic translation a subject for it, by adopting condensation, suggestion, symbolism, and limiting it to presenting the most prominent stations that And he leaves the question of researching it and going in more depth, so what is the strategy followed by the creator of translating altruistic poetry? This is what this research paper seeks, which adopted a poem whose topic is "Ridding the Prince of Arabia from Doubt."
Keywords: *Biography ; prince Abdul el- Kadir; historical facts; Jamel e- Din Abdul el – Hadi.*

- مقدمة:

لا تختلفُ التَّرجمة الغيرية عن الذَّاتية إلا من ناحية القائم بمهمَّة الكتابة والتَّدوين، فهذه الأخيرة تُعرفُ أنَّها تلك "التي يصُوغُها صاحبُها في صُورة مُترابطة، على أساس من الوحدة والاتّساق في البناء والرُّوح كما سلف، وفي أُسلُوب أدبي قادر على أن ينقل إلينا مُحتوى وافيا كاملا عن تاريخه الشَّخصي على نحو مُوجز حافل بالتَّجارب والخبرات الخصبة، وهذا الأُسلوب يقُومُ على جمال العرض وحُسن التَّقسيم وعُذُوبة العبارة وحلاوة النَّص الأدبي، وبثّ الحياة والحركة في تصوير الوقائع والشَّخصيات."[1] فإن لم يقُم صاحبُها بصياغتها ومن دُون أيّ إيعاز منه تنتقلُ التَّرجمة من الذَّاتية

إلى الغيرية، وهي في الإجمال لا تخرجُ عن كونها "بحثا عن الحقيقة في حياة إنسان قد كشف عن مواهبه وأسرار عبقريته من ظُروف حياته التي عاشها والأحداث التي واجهها في مُحيطه والأثر الذي خلّفه في جيله."[2]

يُراد بالسّيرة أو التَّرجمة الغيرية ذلك النَّوع من الكتابة الأدبية الفنّية التي يكتبُها بعض الأفراد عن غيرهم من النَّاس، سواء أكانوا من الأعلام الذين عاشُوا في الزَّمن الماضي أو الحاضر. وقد حدَّدها "عبد اللّطيف الحديدي" في كتابه "فنّ السّيرة" على أنَّها بحثٌ يعرضُ فيه الكاتب حياة أحد المشاهير، فيسردُ في صفحاته حياة صاحب السّيرة أو التَّرجمة ويُفصّلُ المنجزات التي حقَّقها، وأدَّت إلى ذُيوع شُهرته، وأهَّلته لأن يكون موضُوع دراسة.[3] يتكشَّفُ -إذن- لنا أنَّ للتَرجمة الغيرية شُرُوطا تتَّعلقُ بالشَّخصية المترجَم لها، إذ لا بُدَّ أن تكُون من المشهورين في حقل معرفي أو تخصُّص ما، ممَّن يعرفهم العامة والخاصةُ، وهو شرطٌ أساسي في التَّرجمة، يُؤكّد صحَّة ذلك التَّرجمات التي خُصَّ بها عظماء الإنسانية على اختلاف العُصور. وبقدر ما تكُون التَّرجمة مساحة للتَّعريف بتلك الشَّخصية تكُون -أيضا- دعوة للمتلقي إلى الاقتداء بها والاستفادة من تجاربها وخبراتها في الحياة، ولتحقيق ذلك نُلفي أغلب التَّرجمات تُركّزُ على إبراز جوانب العظمة والتميُّز.

من زاوية أُخرى وعلى الرَّغم من بعض الفُروق الضّمنية بين مُصطلحي "التَّرجمة" و"السّيرة" إلا أنَّ عديد الدّراسات الأدبية والنَّقدية تجعلُ منهما مُرادفين لماهية واحدة، في حين أنَّ السّيرة لا يكتُبها إلا صاحبها فهو أعلم بغيره بحياته وأسراره، بينما التَّرجمة فكما يدُّل معناها على نقل مُفردة من لُغة إلى أُخرى، فهي في حقل الأدب محاولة الكتابة عن الآخر، فيخرُجُ التَّعبيرُ عن حياة شخصية من المعني بها إلى شخص آخر، كما أنَّ السّيرة الغيرية "أسبق زمنا من السّيرة الذَّاتية لأنَّها ظهرت مع ظُهُور التَّأريخ والأدب، فمُنذُ ظُهُور الحضارات ظهر الكثيرُ من الرّجال الذين يعيشُون في بلاط الحُكَّام والسَّلاطين فراحُوا يُدونُون ما كان يحدُثُ في زمانهم من تطوُّر ونماء، فأرَّخُوا للسَّلاطين والملُوك وللحُروب ومحاربين ورجالات الدّول، وإنَّ معظم هذه الأعمال تنطوي تحت مفهُوم السّيرة الغيرية."[4] مثلما فعل "مُحَمَّد حسين هيكل" حينما كتب "حياة مُحَمَّد صلى الله عمله وسلم" وكذلك "العقَّاد" في "العبقريات"...إلخ وكما نُلفي البعض يكتبُ ترجمات غيرية لمن تركُوا في نفسه دون غيرهم أثرا خاصا نظرا للقرابة أو الصَّداقة التي تجمعهم بهم، فتكُون التَّرجمة له كتكريم واعتراف له مثلما فعلت "فدوى طوقان" في "أخي إبراهيم."

يُحدّدُ "شعبان عبد الحكيم محمود" أهم الفُرُوق بين التَّرجمة الذَّاتية والغيرية في كون "الأُولى تعرضُ لحياة صاحبها، فتعكسُ مشاعره وعواطفه ومواقفه من الحياة في صُورة تستنبطُ أغوار النَّفس وخلجاتها، أمَّا الثَّانية فتعرضُ لحياة غيرها من خلال الوقائع والذّكريات واليوميات والمقالات والرَّسائل...الخ. لذا كانت السّيرة الذاتية أوغل في الصّدق، وأوقع في النُّفوس، لأنَّ مُؤلفها صاحبها، فلا يُوجدُ هناك وسيطٌ لغرض أحداث حياته وأراءه ومواقفه في الحياة، وكلتا السّيرتين لا تنتميان إلى عالم الأدب إلا إذا تحلتا بالأُسلوب الأدبي الذي يعتمدُ على صدق الأداء ورصانة العبارة وروعة الألفاظ وجمال التَّصوير وقُوَّة الصّراع الذي يمنحُ السّيرة الحركة والجمال."[5] فللتَّرجمة الذاتية مصدر واحد هو صاحبها في حين التَّرجمة الغيرية لها مصادر مُتعدّدة كالرَّسائل والمُذكّرات وشهادات الآخرين...

ينبغي أن تتوفَّر التَّرجمة الغيرية على جُملة من الخصائص والتي تقتربُ كثيرا من التَّرجمة الذَّاتية، لعلَّ أبرزها:

- أن ترتبط بالأحداث التَّاريخية الملازمة لصاحب السّيرة، فلا يُزجُّ فيها ما لا علاقة له بصاحب التَّرجمة، إذ ينبغي أن يكون له أثرا في هذه الأحداث، سواء كفاعل فيها أو شاهدا عليها.
- أن يتمَّ فيها المزج بين الخيال والأحداث الواقعية، على ألا يُؤثّر عُنصر الخيال على مجرى الأحداث.
- أن تتَّسم بأُسلوب قصصي غير حُر.
- أن تتضمَّن قضايا اجتماعية لها أثرها على صاحب السّيرة، خاصة ما تعلَّق بالظُّروف التَّاريخية التي ساهمت في تكوين شخصيته.[6]

بعد هذا العرض الموجز لمفهوم التَّرجمة الغيرية وذكر أهم الفروقات التي تفصلُها عن نظيرتها الذَّاتية، وبالتَّأكيد على أنَّ الجنس الأدبي للتَّرجمة الغيرية الذي يستهدفه البحث هو الشّعر. فإنَّ البحث يقوم على إشكالية يمكن صياغتها كالآتي: ما هي الاستراتيجية التي يتَّبعها الشَّاعر في التَّرجمة الغيرية شعرا؟ وما هي التقنيات التي يستثمرُها حتَّى يُثبت تفاصيل مُستمدَّة من حياة الشَّخصية المترجم لها ويطرقُ أبرز المحطَّات التَّاريخية ويسُوقُ كُلَّ ذلك في قصيدة شعرية؟ وفي محاولة

منَّا للكشف عن هذه الاستراتيجية استعنَّا بآليات المنهج التَّاريخي خاصة ما تعلَّق بالتَّنقيب عن الحقائق والوقائع التَّاريخية التي حفظتها الكتب التي عُنيت بسيرة "الأمير عبد القادر" كما وظَّفنا آلية المقارنة بين ما أدرجه الشَّاعر في قصيدته وما أثبتته سيرة الأمير، بالإضافة إلى المنهج الأسلوبي لإبراز بعض الجوانب الدّلالية والجمالية لبعض المفردات والتَّراكيب المبثوثة في ثنايا القصيدة. وقبل أن نشرع في تقصّي صُور التَّرجمة الغيرية في القصيدة موضع البحث، سنُحاول تبيان المقصود بالتَّرجمة الغيرية شّعرا.

1- التَّرجمة الغيرية شعرا:

بداية وجب التَّنبيه أنَّنا لا نستهدفُ -هنا- الترجمة الغيرية الشّعرية التي نُلفي الحديث عنها في بعض الدراسات التي تُعنى بالسّيرة والتَّرجمة، والتي تُختصُّ بالتَّرجمة للشُّعراء، فهي "سردٌ نثريٌ يتولَّى فيه الكاتبُ تدوين السّيرة الشّعرية لشاعر مُنتخَب، يقتصرُ فيها على سرد الحياة الشّعرية بكُل مُعلّقاتها التَّاريخية والحديثة والمكانية مع إغفال التَّطرُّق إلى الجوانب السّيرية الأُخرى إلا بالقدر الذي يُسهمُ في إغناء سيرته الشّعرية وإيضاحها."[7] وهي تسمية كثيرا ما تُوقعُ المتلقي في نوع من اللَّبس والخلط، فيتوقَّعُ أنَّه بصدد قراءة شعر يتضمَّنُ سيرة غيرية لشخصية ما، فإذا به يقرأُ نثرا يروي تفاصيل حياة شاعر ما.

إنَّ التَّرجمة الغيرية الشَّعرية التي نحن بصددها ما هي إلا إحدى ثمار التَّداخل الأجناسي، الذي مثَّل إشكالاً بالنّسبة إلى مُصنّفي الأدب، فقد أصبح تمييز كُل جنس أدبي عن غيره أمرا عسيرا لتداخلها وتوالدها من بعضها البعض، وهذا ما سبَّب خلطا هائلا أصبحت تُعاني منه بعض المقاربات الادبية والنَّقدية للأجناس الأدبية، حيثُ تسُود زئبقية مُصطلحاتها وانفتاح النُّصوص على بعضها البعض، فليس ثمة أسوارٌ منيعةٌ أو آليات تعملُ داخل الشَّكل الفنّي تحُولُ دُون تداخل الأشكال الفنّية وتمازُجها.[8] هذا من النَّاحية التَّنظيرية أمَّا على مستوى الإبداع والكتابة، فرُبَّا يُعدُّ التَّداخل الفنّي بين الشّعر والتَّرجمة من أقدم القضايا الأدبية التي ميَّزت الشّعر العربي، ولكن دُون أن يُنتبه لها، فلم يكُن هناك فصلٌ بينهما، إذ كانت الثَّانية في خدمة الأوَّل في أغلب الأحيان، وإن غلب الشّعر بصُوره الفنّية التي تقتربُ كثيرا من الخيال في مُقابل تحرّي الحقيقة والواقع الذي تفرضُه التَّرجمة الغيرية، فما المدحُ إلا وُقوفٌ على أبرز المحطَّات التي تحفلُ بها شخصية الممدوح، وكذلك الرّثاء.

إنَّ السّيرة الذَّاتية التي تتَّخذُ لبُوس الشّعر "تعني ترجمة حياة إنسان كما يراها هُو بطريقة شعرية، ففي السّيرة الذَّاتية الشّعرية يُمارسُ الشَّاعر لذة التَّعبير بالحقيقة والوهم، مُعبّرا عن ذاته ومسيرة حياته، في إطار لُغة شعرية مُكثَّفة، وإيقاع مُوسيقي يتناغمُ وأحداث الحياة من حوله، ومُؤثّراتها في نفسه."[9] والأمرُ -تقريبا- لا يختلفُ مع التَّرجمة الغيرية شعرا، فالشَّاعرُ يستثمرُ في ما يُمكنُ أن تمدُّه السّيرة الذَّاتية من أحداث ووقائع تاريخية وملامح شخصية، فيمزجُها بلغة الشّعر وما تحتويه من صُور شعرية تقليدية (مجاز واستعارات وكنايات..) وحديثة (توظيف الرّمز، والأسطورة، والتُّراث...) وعلى هذا النَّحو يسعى الشَّاعر ليقُول الحقيقة مجازا.

02- التَّرجمة الغيرية للأمير عبد القادر في قصيدة "دفع الرّيب عن عرض أمير العرب":

بعد -هذا- العرض المُوجز لمفهوم التَّرجمة الغيرية وطبيعة التَّداخل الذي يُمكن أن يجمعها بالشّعر، نعمدُ فيما يلي إلى استخلاص بعض ملامح وصُوَر التَّرجمة الغيرية لـ"الأمير عبد القادر الجزائري" في قصيدة "دفع الرّيب عن عرض أمير العرب ناصر الدين عبد القادر بن محي الدين الحسني الجزائري"[10] للشَّاعر الجزائري "جمال الدّين عبد الهادي" وهي قصيدة تتكوَّن من مئة بيت تمَّ نشرها في مجلة موازين، الصادرة عن كلية الآداب والفنون بجامعة حسيبة بن بوعلي بالشلف، والتي تهتم بنشر الأبحاث اللُّغوية والأدبية وكذا الأعمال الإبداعية الأدبية كالشّعر والقصَّة وغيرها.

ولأنَّ الموضوع يتعلَّق بالترجمة الغيرية وليس الذاتية، فيحسُنُ بنا في البداية أن نبحث في دوافع التَّرجمة لـ"الأمير عبد القادر الجزائري" عند الشَّاعر، إذ "يحسنُ أن يكشف المترجِمُ لنفسه قبل كُل ذلك عن غايته، فهي التي تُحدّدُ أمامه معالم طريقه، وتُرشدُه إلى ما يجبُ أن يُسقط ويُهمل، وما يجبُ أن يُثبت ويختار."[11] والأمرُ ذاته في التَّرجمة الغيرية، لأنَّ لها دوافع قد تكون ذاتية كالفخر والإعجاب بالشَّخصية المترجَم لها أو موضوعية من باب إنصاف هذه الشَّخصية وإعلاء مكانتها في المجتمع.

2-1- التَّرجمة للأمير انتصار له:

يُفصحُ الشَّاعرُ "جمال الدين عبد الهادي" عن الدَّافع وراء التَّرجمة لـ"الأمير عبد القادر" في مطلع القصيدة، مُمثّلا مقُولة "إحسان عباس" التي يقُولُ فيها: "الأُمَّة التي تحرقُ جُثث رجالها، ولا تُعنى بتسجيل أعمالهم، وإذا مضى على وفاة أحد عُظمائها ستُّون سنة لم تستطع أن تتحقَّق إن كان ذلك العظيم شخصية تاريخية أو خُرافية، لهي أمَّة ضعيفة الإحساس بالتَّاريخ... أمَّا الجماعات التي تعيشُ في ماضيها ومُستقبلها وتدُورُ حياتها على التَّخليد والتَّأبيد وتُسجّلُ سير رجالها على الجدران وفي أوراق البردي وتتَّخذُ مادة تماثيلها من حجارة شديدة الصَّلابة كالبازلت والجرانيت، فإنَّ إحساسها بالتَّاريخ عميقٌ ودقيقٌ."[12] فشخصية مثل "الأمير عبد القادر" جديرةٌ بالتَّرجمة والبحث والتَّنقيب في تاريخها الحافل بالإنجازات، فهو مأثرة الجزائريين طيلة العُصور وإرث حضاري وفكري تتداولُه الأجيال، فتتدارسُه وتستخلصُ منه العبر والمواعظ، والشُّعراء أولى بـ"الأمير عبد القادر" من غيرهم، ولطالما نُظمت فيه القصائد مدحا ورثاء، و"جمال الدين عبد الهادي" مكّنته تجربته الشّعرية من تطويع المدح والرثاء والفخر ليجعلهم سبيلا إلى التَّرجمة للأمير. يقولُ:

قُومَا إِلَى نَصْرِ الكِرَامِ وأَسْرِجَا ... شِعْرًا إِلَى "دَارِ الجِهَادِ" ودَجِّجَا
ثمّ ابْغِيَا نَفَقَ الجهالةِ غُضَّبًا ... وعَلَى دَهَالِيزِ الحُطَيْئَةِ عَرِّجَا
وَسَلَاهُ من مُرِّ القَوَافِي عَلْقَمًا ... واسْتَأْذِنَاهُ إِلَى الأَهَاجِي مَوْلِجَا[13]

يُفصحُ الشَّاعر في مطلع القصيدة أنَّه بصدد "نصر الكرام" قاصدا بذلك "الأمير عبد القادر" ولا سبيل إلى ذلك إلا الانتصار له بشعره، فالمطلعُ يستنهضُ الهمم ويُحفّزُ النُّفوس التي خمدت بداخلها الغيرة على الأعيان والشُّرفاء والعُظماء، ما يُوحي أنَّ هناك من انتقص من شأن الأمير وقيمته وحاول النَّيل منه ومن تاريخه المشرّف، والشَّاعرُ لن يكتفي بنصر الأمير وإنَّما سيهجُو من سوَّلت له نفسه الانتقاص منه، فالمطلع يتضمَّنُ تحذيرا صريحا.

تستوقفنا في القصيدة الأبيات الثَّلاثة الأولى لجماليتها التَّصويرية وإصابتها للمعنى بدقَّة، فهي ترسمُ ملامح واضحة لـ"الأمير عبد القادر" وهو ما ينمُّ عن نُضج التَّجربة الشّعرية للشَّاعر، إذ يستهلُ قصيدته بفعل الأمر "قُوما" وهو بذلك يتتبَّعُ أثر "امرئ القيس" في مُعلقته التي افتتحها بفعل الأمر "قفا" ما ينمُّ عن تأثُّره بالشّعر العربي القديم، فهو -أيضا مثل امرئ القيس- يفترضُ مُخاطَبَين يتوجَّهُ إليهما بشعره، ذلك أنَّ الأمر عظيم، فلم يكتف الشَّاعر بذاته ليُحفزّها ويُشجّعها ويدفعها إلى الانتصار للأمير عبد القادر، بل افترض اثنين آخرين يجلسان معه، وكأنَّه لا يشعرُ بقُوة عزمه وإرادته إلا مع الجماعة، ناهيك أنَّ الانتقاص من شخصية "الأمير" لا يعنيه وحده، بل مسالة تخصُّ كُلَّ جزائري.

كما يُحيلنا الفعلُ "قُوما" إلى الفن الشّعري "القوما" الذي ظهر في العصر العبَّاسي وكان استُحدث في الأساس لإيقاظ النَّاس إلى السَّحور في شهر رمضان، فالسَّحور يكتسي أهمية كبيرة وقُدسية دينية في المجتمع الإسلامي، والشَّاعر "جمال لدين عبد الهادي" يرى أنَّ نصر "الأمير عبد القادر" لا يقلُّ شأنا عن السَّحور، ما دفعه إلى مخاطبة الآخرين واستنهاض هممهم ويُمكننا تمثُّلُ معانٍ أخرى للبيت الشّعري وجماليته التَّصويرية في الجدول الآتي:

المخاطَب	الغاية	الوسيلة	الوجهة
قوما	نصر الكرام	أسرجا شعرا- دجّجا	دار الجهاد
الشُّعراء في المقام الأول ثمَّ الجزائريون.	نصر الأمير عبد القادر	الشّعر هو السّلاحُ	جهاد الكلمة مُمتثلا لقول الرَّسول عليه الصلاة والسلام "ما يمنع القوم الذين نصروا رسول الله بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم."[14]

يُوظّفُ الشَّاعرُ "الحطيئة" كرمز يُغني عن عديد المفردات والمعاني، فبمجرد استحضاره يتبادرُ إلى الذّهن لسانُه السَّليط وهجاؤه المقذع، ويعترفُ الشَّاعرُ بإمارة "الحطيئة" للشّعر خاصة الهجاء منه بدليل توظيفه للفعل "استأذناه" و"مُرَّ القوافي" وممَّا يُلاحظ -أيضا- استمراره مخاطبة المثنَّى في الأبيات الثَّلاثة الأولى: ابغيا، عرّجا، سلاه، استأذناه... توضيحا للمُراد من فعل القيام الذي استهلَّ به قصيدته.

يكشفُ الشَّاعرُ لنا في البيت الموالي الدَّافع لنظم القصيدة ومن وراءها التَّرجمة لـ"الأمير عبد القادر" يقُولُ:

إِنِّي سَمِعْتُ منَ الجُنَاةِ عَجَائِبًا لَكِنْ كَهَذِي لَيْسَ تَخْطُرُ بالحِجَا[15]

لقد تجاوز هؤُلاء حُدُود المعقول، فتقوَّلوا على "الأمير عبد القادر" واختلقُوا الأكاذيب وروَّجُوا شائعات تنالُ من شخصه وتاريخه الحافل بالإنجازات، والشَّاعر يُشير إلى هؤلاء بـ"الجناة" والجاني هو من ارتكب ذنبا أو جُرما واعتدى على غيره، والأمرُ ليس بالغريب بل مُتوقَّعٌ وفي كُل العُصُور، فلطالما استهدفت شخصية "الأمير عبد القادر" حملات تشويه وتزييف من وقت لآخر، غالبا ما تصدُرُ من الأعداء والخُصُوم، والتَّاريخ يُثبتها، وهي أولى المحطَّات في التَّرجمة للأمير، فلولا عظمته لما طالته هذه الحملات، يُجملُها الشَّاعرُ في قوله:

قَالُوا عَمِيلٌ للفِرِنْجِ وخَائِنٌ نَشَرَ الضَّلاَلَةَ، لِلْعَقِيدَةِ سَمّجَا

نَسَبُوهُ للمَاسُونِ، زُوراً صَيَّرُوا عِرْضَ الشَّرِيفِ ابْنَ الشَّرِيفِ مُفَلَّجَا[16]

يُلخصُ الشَّاعرُ أبرز التُّهم المنسوبة لـ"الأمير عبد القادر" وهي في مُجملها تتراوحُ بين: العمالة للفرنسيين، والخيانة، والضّلالة (الصُّوفية) والانتماء إلى الماسونية، والشَّاعرُ -هنا- ليس في مقام المدافع عن الأمير فحسب، وإنَّما عن الجزائر شعبا وتاريخا، وهي ردَّة فعل طبيعية لأيّ جزائري يُدركُ جيّدا ما قدَّمهُ الأمير وبذله في سبيل تحرير الجزائر وبناء الدَّولة الحديثة، وممَّا يُلاحظُ -أيضا- أنَّ الشَّاعر لا يحفلُ بماهية هؤلاء الطَّاعنين في تاريخ الأمير، ولأجل ذلك اكتفى بالفعل "قالوا" دون تحديد لهم، وفي ذلك إشارة إلى من تقوَّلوا عنه قديما ومن سيتقوَّلون عنه -أيضا- مُستقبلا، هكذا ينتصرُ الشَّاعر والأديب للهجمات التي تستهدفُ رُمُوز الأمَّة، فالواقعُ يُثبتُ أنَّه لا يملكُ إلا سلاح الكلمة، و"جمال الدين عبد الهادي" قد عزم أمره، بل إنَّنا نجدُه يدعُو غيره من الشُّعراء للاحتذاء به، ويستفزُّهم قائلا:

لا بَارَكَ اللهُ العَظِيمُ بِشَاعِرٍ ذُمَّ الكِرَامُ أَمَامَهُ فَتَفَرَّجَا[17]

وفي بيت آخر أيضا يقول:

إنّ المحِبَّ إذَا أُهِينَ حَبِيبُهُ أَضْحَى لَعَمْرِي كالجَحِيمِ مُؤَجَّجَا[18]

إذن، يرى الشَّاعر "جمال الدين عبد الهادي" أنَّ الكتابة لـ"الأمير عبد القادر" انتصارٌ له وترسيخٌ لمكانته التي تتوارثُها الأجيالُ وتقديرٌ معنويٌ لما بذله من أجل الجزائر، وأنَّ تضمين القصيدة لملاحمه وبطولاته وإنجازاته ترجمة له وسيقفُ المتلقي عندها، والأكيد أنَّها ستدفعُه للبحث في سيرته والتَّعرف عليه أكثر.

2-2- شخصية الأمير عبد القادر في القصيدة:

من بين الأُمُور التي يُركّزُ عليها أثناء فعل التَّرجمة لشخصية ما هُو حشدُ أكبر قدر مُمكن ممَّا بإمكانه تقديم صُورة مُتكاملة عنها للمتلقي، ويتمُّ ذلك بتقديم الحقائق التَّاريخية والتي تثبتُها سيرتها، والحرص على التَّوظيف الجيّد لتقنية الوصف لتقريب الصُّورة أكثر، لأنَّها عادة ما تُكتبُ للمتلقي الذي لم يُعاصر هذه الشَّخصية، وهنا وجب التَّنبيهُ على ألاَّ تتعدَّى الصُّورة الحقيقية، والتي كثيرا ما يتمُّ تجاوزُها، فتُمنحُ للشَّخصية ملامحُ أُسطوريةٌ تعلُو وتفوقُ البشر، رُبَّما يكون الأمر سهلا ويسيرا في الأجناس الأدبية النَّثرية، نظرا لحجم المساحة التي يُتيحُها نظام الجُمل والفقرات، ولكنَّه في الشّعر صعبٌ نوعا ما، إذ ينبغي للشَّاعر أن يقتصد في تراكيبه اللُّغوية، ويعتمد أُسلوب التَّكثيف والإيحاء ويستثمر صُورا شعرية تُبرزُ جمالية الشّعر وفي الآن ذاته معانٍ ومعارف تُقدّمُ للمُتلقي الشَّخصية المترجَم له، فالشّعر يفترضُ التَّركيز وحشد المعنى المسهب في ألفاظ وعبارات قليلة يستغلُّ الشَّاعر ما فيها من إيحاء وإشعاع.[19]

لقد عمل الشَّاعر "جمال الدين عبد الهادي" في قصيدته -هذه- على إبراز ما أهَّل "الأمير عبد القادر" ليكون ضمن عظماء الجزائر والعالم، فنجدُه يبثُّ بعضها في تسلسل مُتقنٍ، يقُولُ:

قَدْ قِيلَ عَنْ تَاجِ المَكَارِمِ والعُلَا إفْكاً عَظِيماً في المَزَابِلِ أُدْرِجَا[20]

ينطلقُ الشَّاعرُ من العام إلى الخاص، فيُوردُ ما يُغني عن ذكر التَّفاصيل، فكُلُّ صفة أو فضيلة إلا وتُدرجُ ضمن "تاج المكارم والعُلا" فإن تميَّز الآخرُون بالكرم والشَّجاعة والوفاء وغيرها فإنَّها في "الأمير عبد القادر" أكثر حُضُورا وتمثُّلا، ولكثرتها وتنوُّعها ومُلازمتها له أضحت تاجًا يُزيّنُ به رأسه، وكما أنَّ المكان الطَّبيعي للتَّاج هُو الرَّأسُ، مرئيٌّ للجميع، فكذلك أخلاقُ "الأمير عبد القادر" يشهدُ لها العدوُّ قبل الصَّديق، ولا يُمكن لأحد أن يُنكرها.

يشرعُ الشَّاعر -لاحقا- في تفصيل ما أطلقَ عليه "تاج المكارم والعُلا"، فيستهلُّ ذلك بنسب الأمير، يقُولُ:

نَسَبُ "الأَمِيرِ" أَيَا زَعِيمُ قَدِ اسْتَوَى ... فِي عَرْشِ هَاشِمَ بالنَّبِيِّ تَتَوَّجَا[21]

يُؤكّدُ أنَّ نسب "الأمير عبد القادر" أبعد ما يكُونُ عن الانتقاص أو الاحتقار، فهو معُلوم لدى الجميع، محفوظٌ في الكثير من المصادر التَّاريخية، لا خلاف حوله، فنسبه -وبالدَّليل- يرجعُ إلى الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام، والشَّاعر يربطُ بين نسب "الأمير عبد القادر" والنَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام، إذ ليس هناك "من يجهلُ شرف محتده، ولا طيب أعراقه ولا ذاكي أُرومته، ولا سُمو نسبه وحسبه، فهو الملك الناصر عبد القادر مُحي الدّين بن مصطفى بن مُحَمَّد بن المختار بن عبد القادر بن أحمد المختار بن عبد القادر بن أحمد بن مُحَمَّد بن عبد القوي بن علي بن أحمد بن عبد القوي بن خالد بن يُوسف بن أحمد بن بشار بن مُحَمَّد بن مسعود بن طاووس بن يعقُوب بن عبد القوي بن أحمد بن مُحَمَّد بن إدريس الأصغر بن إدريس الأكبر ابن عبد الله المخلص بن الحسن المثنى بن الحسن السّبط أميرُ المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه وعن أُمّه فاطمة الزَّهراء بنت سيّد الوُجود مُحَمَّد صَلى الله عليه وسلَّم."[22] و"جمال الدّين عبد الهادي" استهلَّ قصيدته بما تُستفتحُ به التَّراجم عادة، فقبل عرض أهم المحطَّات والإنجازات لا بُدَّ من التَّطرُّق لنسب الشَّخصية.

يُفصّلُ الشَّاعرُ ملامح شخصية "الأمير عبد القادر" الأخلاقية، فيقُول:

فَجْرٌ بِأُفْقِ الدَّهْرِ لاَحَ ضِيَاءُهُ ... سَيْفٌ بِكَفِّ الحَقِّ جُرِّدَ أَبْلَجَا
رَمْزُ العُرُوبَةِ والشَهَامَةِ والتُّقَى ... رَاضِي المُرُوءة والتَّصَوُّفِ مَنْهَجَا
فَهَّامَةٌ قُطْبُ العُلُومِ سَمَيْدَعٌ ... الرَّأْيُ والإِقْدَامُ فِيهِ تَوَشَّجَا
في السِّلْمِ يَعْلُوا في المَنَابِرِ دَاعِياً ... رَعْدٌ عَلَى ظَهْرِ السَّحَابِ تَهَزَّجَا
وتَرَاهُ يَوْمَ الزَّحْفِ رَأْسَ خَمِيسِهِ ... وَهُوَ الهِزَبْرُ إِذَا الوَطِيسُ تَأَجَّجَا
ومَطِيُّهُ طِرْفٌ كَلَوْنِ جَبِينِهِ ... قَمَرٌ جَرَى بَيْنَ الصُّفُوفِ مُهَمْلِجَا
وكَفِّهِ سَوْدَاءُ يُبْدِعُ رَمْيَهَا ... ومُرَصَّعٌ بِدَمِ العَدُوِّ تَزَبْرَجَا
وبِخَصْرِهِ يَا لَيْتَ شِعْرِي تَوْأَمٌ ... وَحْشَانِ فِي يَوْمِ الكَرِيهَةِ يَخْرُجَا
حَمَلَ العِبَادَ عَلَى الجِهَادِ مُوَحِّدًا ... كُلَّ القَبَائِلَ ، تَحْتَ رَايَتِهِ النَّجَا
لله دَرُّ "أَبِي مُحَمَّدَ" سَيْفُهُ ... شَافَى صُدُورَ العَالَمِينَ وأَثْلَجَا[23]

ولأنَّ شخصية "الأمير عبد القادر" يُمثّلُ أوَّل مُقاومة مُنظَّمة عمَّت مناطق كثيرة من الجزائر ضدَّ الاستعمار الفرنسي، وألحقت به خسائر فادحة في أكثر من واقعة، فمن الطَّبيعي أن يُعرف بالشَّجاعة وشدَّة البأس في الحرب، وهي الصّفة التي أوغل فيها الشَّاعر في الأبيات السَّابقة توصيفا وتأكيدا، حتَّى أنَّنا نلحظُ غلبة مُعجم الحرب والذي يرتبطُ بشخصية "الأمير عبد القادر" ومن ذلك: سيفٌ، الإقدام، رعدٌ، يوم الزَّحف، الهزبر، الوطيس، تأجَّجا، مهملجا، دم العدو، الجهاد... فالأمير "قد بانت شجاعتُه وطار صيتُه وانتشر في الآفاق بسبب الوقائع الجهادية."[24] ويبدو واضحا كيف أنَّ الشَّاعر اتَّخذ المدح سبيلا إلى تقديم شخصية الأمير إلى المتلقي، فهو لم يُجاوز الحقيقة بل ذكر ما أكَّده الخُصوم في مُذكراتهم، فـ"الأمير عبد القادر "قد اضطلع بالمسؤولية العُليا كأمير للبلاد في سنّ الفُتوة، أي في سن المثالية، إذ استكمل في تلك المرحلة من العُمر ما ستستوفي به شخصيتُه من أُسس الاستواء الجسدي والعقلي التي ستتحدَّدُ بها سمات الامتياز والفذاذة بل والكاريزمية التي سيُظهرُها على أكثر من صعيد."[25]

وممَّا أُثِر عن "الأمير عبد القادر" -أيضا- تواضُعه وتعفُّفه عن المكاسب المادية والمناصب والدُّنيا بمتاعها بصفة عامة، وفي ذلك يقُول الشَّاعرُ:

عَرَضَتْ عَلَيْهِ العُرْبُ حُسْنَ عُرُوشِهَا ... لَمَّا رَأَت فِيهِ القِوَامَةَ تُرْتَجَا

لَكِنْ أَبَى مُتَعَفِّفًا فِي زُهْدِهِ مِحْرَابُهُ بِالذِّكْرِ يَحْيَا مُسْرَجَا[26]

وهي قصَّة مشهورة معلومة في تاريخ وسيرة "الأمير عبد القادر" وتاريخ الشَّام أيضا، فلو كان يسعى للسُّلطة والملك لتأتَّى له ذلك في سنوات مُتقدّمة من بيعته، وهو الذي أُمّرَ غير راغب فيها، ولكنَّه رجلٌ صدق ما عاهد الله عليه "بل سنرى هذا التَّنصُّل من التَّولية والقيادة سيُلازمُ الأمير عبد القادر نفسه الذي طفق يُعربُ حتَّى بعد مُبايعته عن رغبته الحق في التَّخلي عن المسؤولية وتسليمها إلى غيره."[27] وهي قضيَّة هامة في حياة "الأمير عبد القادر" يعرضُها الشَّاعر "جمال الدين عبد الهادي" في بيتين شعريين فقط، فـ"العربُ" هما عرب الشَّام الذين عاش بينهم وتُوفي بينهم وعرب الجزائر الذين بايعُوه أميرا عليهم خلفا لوالده.

من بين أكثر الصّفات والملامح التصاقا بشخصية "الأمير عبد القادر" والتي لا ينبغي أن تغيب عن أيّ مُترجمٍ له "التَّصوف" وفي ذلك يقُولُ الشَّاعرُ:

وَلِرُوحِهِ بِرُبَى التَّبَتُّلِ خُلْوَةٌ نَالَتْ بِهَا لِلْذُرَى الكَرَامَةِ مَعْرَجَا
مِنْ أَوْلِيَاءِ الله فِي زَمَنٍ غَدَا مِنْ غَيْثِهِمْ رَوْضًا نَدِيًّا مُبْهِجَا
ضَاءَ الفَضَاءُ بِنُورِهِمْ ونَوَالُهُمْ غَمَرَ الأَبَاطِحَ والجِبَالَ مُتَوَّجَا
رَجَلٌ بِهِ أَحيَا الإِلَهُ مَكَارِمًا مَاتَتْ بِمَوْتِ الصَّالِحِينَ تَدَرُّجَا[28]

يُمكنُنا في هذا المقطع أن نقف على مُعجم التَّصوف المرتبط بـ"الأمير عبد القادر" ومن الألفاظ الدَّالة عليه: لروحه، خلوة، الكرامة، أولياء الله، غيثهم، روضا، الفضاء، نورهم، الصالحين، تدرُّجا... يُلاحظ -إذن- مقدرة الشَّاعر وبراعته في حشد أكبر قدر من المصطلحات الصوفية في مساحة تعبيرية ضئيلة رغم حُمولاتها الدّلالية المثقلة بالمعاني والإيحاءات اللامتناهية، فاسم "الأمير عبد القادر" يرتبطُ بالتَّصوف، حتَّى أنَّ هناك تعريفا له، يرى فيه أنَّه "جهاد النَّفس في سبيل الله، أي لأجل معرفة الله وإدخال النَّفس تحت الأوامر الإلهية، والاطمئنان والإذعان لأحكام الرُّبوبية، لا لشيء آخر من غير سبيل الله."[29] فالتَّصوفُ من منظوره أرقى ما يُمكنُ للعبد أن يصله في عبادته لله، ولم يكن وليد سنواته الأخيرة، بل ظهرت نزعتُه الصُّوفية في فُتوته، ذلك أنَّ "المنزع الصُّوفي تعمَّق في رُوحه بتأثير الزَّلازل التي عايشها عبر حياته، إذ أضحت نظرتُه إلى الكون نظرة إنسانية شاملة تُمجّدُ الإنسان أنَّى كان."[30]

عبر هذه العناوين العريضة من سيرة "الأمير عبد القادر" (الأخلاق الفاضلة، الشجاعة، الزهد، التَّصوف) يسُوقُ الشَّاعرُ "جمال الدين عبد الهادي" صُورا واضحة المعالم إلى المتلقي، وهي في الحقيقة تُمثّلُ أبرز المحطَّات التَّاريخية في حياته، فالأخلاقُ الفاضلةُ ترتبطُ بالمرحلة التي تلقَّى فيها تكوينه العلمي والاجتماعي وتكَّونت فيها شخصيته وهي الطفولة، أمَّا الشَّجاعة فارتبطت بفترة الشَّباب حينما تمَّت مبايعته أميرا، ليخُوض بعدها معارك ضارية ضدَّ الاستعمار الفرنسي، وأخير الزُّهد والتَّصوف اللَّذان ترسَّخا وانطبعا في شخصيته خلال سنواته الأخيرة.

2-3- الوقائع التَّاريخية في سيرة الأمير عبد القادر:

لا يُمكنُ الفصل بين التَّرجمة والتَّاريخ، فقد "نشأت السّيرة بنوعيها الذَّاتية والغيرية في حُضن التَّاريخ، لذلك ففيها بعض ملامحه، بل إنَّها في بعض الأحيان تقتربُ منه إلى درجة تجعلُ بعض الباحثين يعدُّونها لونا من ألوان التَّاريخ."[31] لذلك يُركّزُ الكُتَّاب في ترجمتهم للآخرين على الوقائع التَّاريخية التي عايشوها أو كانوا طرفا فيها، ولأنَّ شخصية "الأمير عبد القادر" شخصية ثورية بامتياز، خاضت عديد المعارك ضدَّ الاستعمار الفرنسي، فالأكيد أنَّ اسمه وتاريخه سيرتبطُ بوقائع ومعارك يحفظُها التَّاريخ ويُدرّسها للأجيال اللاحقة، تماما كما نتحدَّثُ اليوم عن معركة اليرموك والقاديسية وحطّين وبلاط الشُّهداء... ذلك أنَّ "ملحمة الأمير عبد القادر الجهادية بالرَّغم من قِصر مُدَّتها ونجاح الفرنسيين في وضع نهاية مأساوية لها، إلا أنَّها في مجال الذَّاكرة التَّاريخية للأجيال العربية كانت وستظلُّ تجربة رائدة للإسهام العربي في صُنع الأحداث وتغيير الواقع."[32] و"جمال الدّين عبد الهادي" بدوره لم يُفوت على المتلقي فرصة تقديمه لأبرز المعارك التي أضحت تاجا يُزيّن به التَّاريخ الجزائري، يتوقَّفُ الشَّاعرُ عند معركة "المقطع" قائلا:

صَنَعَ العَجَائِبَ يَوْمَ "مَقْطَعَ" عَزْمُهُ أَفْنَى العُلُوجَ مِنَ الفِرِنْجِ وَبَهْرَجَا
بِكَتَائِبٍ بِأَكُفِّهَا أَكْفَانُهَا صَدْرُ الرَّدَى مِنْهَا يَضِيقُ تَحَرُّجَا
ومَدَافِعُ التَّوْحِيدِ جَنْبَ بَنَاتِهَا خَذَلَتْ بِشُهْبِ الحَقِّ شِرْكًا بَهْرجاَ

والرُّعْبُ يَسْتَلِبُ العُيُونَ بَرِيقَهَا والمَوْتُ مِعْوَلُهُ الكَوَاكِبَ أَرْهَجَا
والشَّيْخُ في فَلَكِ المَعَالي شَامِخٌ والشِّرْكُ في دَرَكِ المَخَازِي ضُرِّجَا[33]

وهي المعركة التي وقعت في 28 جوان 1835م بين القوات الفرنسية بقيادة الجنرال "كميل ألفونس تريزيل" وتحالف القبائل العربية الجزائرية في غرب الجزائر بقيادة "الأمير عبد القادر" أثناء الغزو الفرنسي للجزائر، ولم يتجاوز فيها سنُّ "الأمير عبد القادر" ستَّ وعشرين سنة، خسرت فيها فرنسا الاستعمارية حوالي 500 قتيل، ووفق هذا المبدأ تُصبحُ القصيدة تأريخا للمعركة وترجمة لقائدها، وهو ما يجعلُ "ترجمة الحياة عمليَّة فنيَّة تجمعُ بين عمل المؤرّخ من جهة ارتباطها بسيرة إنسان عاش في بيئة بعينها وزمن بعينه، وبين عمل المصور الفنَّان الذي يتخصَّصُ في رسم الصُّور التّصفية للأشخاص."[34] والمصور الفنَّان في هذه الحالة هو الشَّاعرُ.

يذكُرُ الشَّاعر معارك أُخرى لـ"الأمير عبد القادر" دُون تفصيل ويتركُ للمتلقي مجالا للبحث عنها ومعرفة حيثياتها، يقول:

صَلَبَ الصَّلِيبَ عَلَى تِلَالِ "مُعَسْكَرَ" وهِلَالُهَا بِذُرَى المَآذِنِ قَدْ شَجَا
عَصَمَ المساجد أنْ يُهَتَّكَ عِرْضُهَا وأَجَارَ عَهْدَ المُصْطَفَى أَنْ يُبْعَجَا[35]

من المحطَّات التَّاريخية الفارقة في سيرة "الأمير عبد القادر" والتي حرص الشَّاعر أن يُضمّنها قصيدته، ولربَّما هي المحطَّة الأكثر استحضار لدى فئة كبيرة من الشَّعب الجزائري، والمتمثّلة في كونه مُؤسّس الدَّولة الجزائرية الحديثة، يقُولُ:

فَتَأَسَّسَتْ للدِّينِ دَوْلَةَ عِزِّهِ هُوَ رَأْسُهَا، والنَّصْرُ أَضْحَى أَبْلَجَا[36]

ففكرة تأسيس الدَّولة الجزائرية كانت ماثلة في ذهن "الأمير عبد القادر" قبل مُبايعته، وكانت بمثابة الهاجس بالنّسبة إليه، فلمَّا توافرت الشُّروط والظُّروف المناسبة (تأسيس جيش نظامي، إقامة عاصمة متنقلة، حكومة مركزية، تقسيم البلاد إلى ولايات، مجلس القضاء، مجلس الشورى...) لذلك لم يتوان لحظة في تحقيق ذلك، فلقد "كان ظُهُور الأمير عبد القادر على مسرح الأحداث وتولّيه مقاليد الأمور في ظُروف صعبة نقلة نوعية في مُمارسة السُّلطة في تاريخ الجزائر، أساسُها رغبة السُّكان وقوامها اعتمادُ الأمير عبد القادر على تأييدهم والتفافهم حوله، وهذا ما يُؤسّسُ لقيام نظام حُكم شرعي ويكُون قاعدة لبناء دولة وطنية لا تقُومُ على الإكراه، ولكن تستندُ إلى مبادئ العدل والتَّعاون بين الجميع."[37]

وهناك -أيضا- محطَّة تاريخية أخرى فاصلة في مسيرة "الأمير عبد القادر" والتي كانت بحق نقطة تحوُّل في تاريخه الشَّخصي وتاريخ الجزائر، إنَّها واقعة الخيانة والمكيدة التي تعرَّض لها، يقُولُ الشَّاعرُ:

فَرَمَاهُ "عَبْدُ العَرْشِ" سَهْمَ خِيَانَةٍ أَمْسَى بِهِ في السِّجْنِ كَرْهًا مُدْرَجَا
مُسْتَسْلِمًا لا مِنْ هَوَانٍ إِنَّمَا حَقْنَ الدِّمَاءِ الزَّاكِيَاتِ تَلَهُّجَا
لَوْلاَ "هُشَيمُ" رَجِيعُ هَجْرَعَ مَا دَرَى "أَبْنَاءُ عَجْلَ" للجَزَائِرِ مَنْهَجَا[38]

لقد أثبت التَّاريخُ تعرُّض الأمير إلى الخيانة من الأمير المغربي "مولاي هاشم"، وفعل الخيانة كان نتيجة منطقية لمعاهدة طنجة 10 سبتمبر 1844م بين فرنسا الاستعمارية والمغرب، والتي تنُصُّ على "اعتبار الأمير عبد القادر خارجا عن القانون أينما وُجد، ووُجُوبٌ على السُّلطتين الفرنسية والمغربية مُطاردته من الأراضي الجزائرية المغربية إلى أن يُطرد من البلدين أو يُلقى عليه القبض ويُسجن في إحدى المدن السَّاحلية المغربية على المحيط الأطلسي."[39] بهذه الطَّريقة السَّلسة والمتسلسلة يُقدّمُ الشَّاعرُ "جمال الدّين عبد الهادي" إلى المتلقي وقائع تاريخية مستمدَّة من حياة "الأمير عبد القادر" وهي في الحقيقة أيسرُ ما يُمكنُ له أن يتسلَّح به من معرفة حول هذه الشَّخصية التَّاريخية الفذَّة، "إنَّه يُريدُ أن يُثير فينا الاهتمام بحياة إنسان له قيمته."[40]

إنَّ تسلسل الشَّاعر في تقديم شخصية "الأمير عبد القادر" يفرضُ عليه انتقاء وقائع دُون أخرى، كحادثة نفيه إلى دمشق التي يقُولُ عنها:

فَنَفَوْهُ نَحْوَ دِمَشْقَ إِخْمَادًا لَهُ والشَّمْسُ لا تَنْفَكُّ قَطُّ تَوَهُّجَا
فَأَقَامَ دُورًا لِلْعُلُومِ، مُطَبِّباً مَنْ يَشْتَكِي دَاءَ الجَهَالَةِ مُحْرَجَا
وأَعَادَ لِلشَّامِ الجَرِيحَةِ مَجْدَهَا بالحِلْمِ قَوَّمَ في دِمَشْقَ مُعَوَّجَا
حَارَ الخَلائِقُ في رَحَابَةِ صَدره إِذْ كَانَ ظِلًا لِلنَّصَارَى سَمْجَسَجَا

وأَجارَهُمْ مِنْ جُورِ جِيرَانٍ لَهُمْ ولِبَابِ سِرْدَابِ التَّطَرُّفِ أَرْتَجَا[41]

والشَّاعرُ يُحيلُ بأبياته المتلقي إلى الفتنة التي نشبت يوم 1860/07/10م والتي أنقذ فيها "الأمير عبد القادر" المسيحيين، "ورغم أنَّه لم يتمكَّن أن يُوقف الحركة من أولها، إلا أنَّه عمل مع رجاله الجزائريين على إنقاذ أكبر عدد ممكن من المسيحيين وأصبح بذلك إحدى عشر ألف من المسيحيين يدينُون به بحياتهم، وقد أنزل بعضهم في داره والبعض الآخر في الحي الذي يعيشُ فيه."[42]

يستحضرُ الشَّاعر آخر محطَّة في حياة "الأمير عبد القادر" وهي وفاته، يقُولُ:

رَجَلٌ بِهِ أَحيَا الإِلَهُ مَكَارِمًا مَاتَتْ بِمَوْتِ الصَّالِحِينَ تَدَرُّجَا
حَتَى إِذَا وَفَّى الكَمَالَ حُقُوقَهُ زَفُّوهُ فِي حَدْبَاءَ، بِشْراً أَبْلَجَا
نَزَلَ المَلَائِكُ، والعُيُونُ نَوازِفٌ مِنْ حَوْلِهِ، واللَّيْلُ حُزْنًا قَدْ سَجَا
وَبِرَبّهَا سُلَّتْ، بِأَطْيَبِ رِيحَةٍ سَاقُوهُ لِلْمَأْوَى، يُكَفِّنُهُ الرَّجَا
فَحَوَتْ بِتُرْبَتِهَا "دِمَشْقُ" كَرَامَةً وَجِوَارَ شَيْخِ الأَكْبَرِيَّةِ أُدْرِجَا
واليَوْمَ فِي "عَلْيَاءَ" فَاحَ أَرِيجُهُ فَغَدَا الجَزَائِرُ نَرْجِسًا وبَنَفْسَجَا[43]

فقد "تُوفي مُنتصف ليلة السَّبت 19 رجب 1300/ 24 آيار 1883 في قصره بقرية دمر غرب دمشق عن 76 عاما."[44] وممَّا يشدُّ الانتباه هو تلك المفارقة التي ضمَّنها الشَّاعر هذه الأبيات، فعلى الرَّغم من كونها تتحدَّثُ عن وفاة مُؤسس الدَّولة الجزائرية الحديثة، إلا أنَّه عبَّر عنها بمعجم يُوحي بالفرح والانتصار بعد أن دثَّرها بلبُوس الحزن، مثل: أحيا، زفوه، بشرا، أبلجا، أطيب ريحة، فاح أريجه، نرجسا، بنفسجا. لم يفت الشَّاعر ذكر مكان دفنه الذي قال عنه "جوار شيخ الأكبرية" فقد "اجتمعت الآراء على دفنه بجوار الشَّيخ محي الدّين بن عربي."[45] كما يُبيّنُ الشَّاعرُ أنَّ الشَّعب الجزائري مُتمسّكٌ بنهج "الأمير عبد القادر" نهج الحُرية والكرامة والعدالة والشَّجاعة والمقاومة والإباء، يقُولُ:

واليَوْمَ نَحنُ عَلَى طَرِيقَتِهِ ولَنْ نَرْضَى لِغَيْرِ **القادرية** مَنْهَجَا[46]

و"القادرية" هنا نسبة إلى "الأمير عبد القادر" ولا يُقصدُ بها "الطَّريقة القادرية" التي تُنسب إلى "عبد القادر الجيلاني."

تبدُو هذه الوقائع التَّاريخية المستمدَّة من حياة "الأمير عبد القادر" والمبثوثة بإحكام في قصيدة "جمال الدين عبد الهادي" وكأنَّها "شكلٌ من أشكال السّيرة، وفيه يتطلَّع (الشَّاعر) راوي السّيرة الغيرية لرواية حياة إبداعية في مجال حيوي ومعرفي مُعيَّن للشَّخصية المنتخبة، يعتقدُ بأهميتها وضرُورتها، فضلا عن صلاحيتها للتقديم، فيذهبُ إلى قراءة مُستفيضة كحشد كُل ما هو ممكن من معلومات حولها وُصولا إلى خلق إحساس عال بها يُساعده في تلمُّس خفاياها والكشف عن باطنيتها."[47]

الخاتمة:

في ختام هذه الورقة البحثية التي حاولنا من خلالها الكشف عن استراتيجية الشَّاعر في جعل القصيدة الشّعرية ترجمة غيرية يُمكننا أن نُلخّص أهمَّ النتائج المتوصَّل إليها، وهي:

- الاختلاف الأبرز بين التَّرجمة الغيرية والذَّاتية يتمثَّلُ في هُويَّة كاتبها، فالأُولى تصدر عن الآخر في حين الثَّانية عن أنا الكاتب.
- التَّرجمة الغيرية نوعٌ من الكتابة الأدبية الفنّية التي يكتبُها بعض الأفراد عن غيرهم من النَّاس، مراعين فيها بعض الأسس الفنية والجمالية التي تضمن لها الانتماء إلى حقل الأدب وتبتعد بها عن التَّاريخ.
- تعتمد استراتيجية الشَّاعرُ "جمال الدين عبد الهادي" في التَّرجمة لـ"الأمير عبد القادر" في قصيدته "دفع الرّيب عن عرض أمير العرب" على:
- الانطلاق من الدَّافع الكَّامن وراء فعل الكتابة ومنه التَّرجمة، فهو يرى أنَّ التَّرجمة للأمير انتصار له.
- توظيف ملاحم الأمير وبطولاته وإنجازاته وتقديمها إلى المتلقي في شكل محاور رئيسة تقوم عليها التَّرجمة.
- الاكتفاء بالمحطَّات التَّاريخية الكُبرى من مسيرة "الأمير عبد القادر" مع ترك مساحة للبحث والتَّحري للمتلقي.

- التَّركيز على الجانب الأخلاقي والرُّوحي للأمير، وهما مصدرا تميُّزه وعظمته (الأخلاق الفاضلة، الشجاعة، الزهد، التَّصوف)
- الاستثمار في الوقائع التَّاريخية وتوظيفها فنيا وتقديمها للمتلقي وبثّها في القصيدة بتسلسل وإحكام (المعارك، البيعة، الخيانة).

هوامش البحث وإحالاته:

[1]- يحي إبراهيم عبد الدايم، الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، د ط، د ت، ص10.
[2]- حسين فوزي النَّجار، التاريخ والسير، دار القلم، القاهرة، 1864، ص14، نقلا عن: عبد العزيز شرف، أدب السيرة الذاتية، مكتبة لبنان، الشركة المصرية العالمية للنشر-لونجمان، القاهرة، ط01، 1998م، ص 13-14.
[3]- عبد اللطيف الحديدي، فن السيرة بين الذاتية والغيرية في ضوء النقد الحديث، ذار السعادة للطباعة، القاهرة، ط01، 1996م، ص67.
[4]- ندى محمود مصطفى الشيب، فن السيرة الذاتية في الأدب الفلسطيني (2002 1992) درجة الماجستير في اللغة العربية بكلية الدراسات العليا نابلس، فلسطين، 2006م، ص07.
[5]- شعبان عبد الحكيم مُحَمَّد، السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث رؤية نقدية، مؤسسة الوراق للنشر والتوزيع، دار عماد الدين للنشر والتوزيع، الأردن، ط01 ،2015م، ص16-17.
[6]- ينظر: عماد عمي الخطيب، في الأدب الحديث ونقده عرض وتوثيق وتطبيق، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، عمان، ط02، 2011م، ص146.
[7]- مُحَمَّد صابر عبيد، تمظهرات التشكل السير الذاتي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، د ط، دمشق، 2005م، ص208.
[8]- عبد الله عبد الرحمن الحيدري، رواية السيرة الذاتية، مجلة علامات في النقد، مج13، ج49، سبتمبر 2003م، ص580.
[9]- مُحَمَّد مطالقة، السيرة الشعرية في الأدب الأردني المعاصر، رسالة ماجستير، جامعة جدارا، 2010، ص6-9.
[10]- جمال الدين عبد الهادي، دفع الريب عن عرض أمير العرب، مجلة موازين، مج01، ع01، ص ص 131-134.
[11]- يحي إبراهيم عبد الدايم، الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، ص05.
[12]- إحسان عباس، فن السيرة، دار صادر، بيروت، دار الشروق، عمان، ط01، 1996م، ص09- 10.
[13]- جمال الدين عبد الهادي، دفع الريب عن عرض أمير العرب، مجلة موازين، مج01، ع02، ديسمبر 2019م، ص131.
[14]- مساعد بن سليمان الطيار، نوح بن يحي الشهري، موسوعة التفسير المأثور، مركز الدراسات والمعلومات القرآنية بمعهد الإمام الشاطبي، دار ابن حزم، بيروت، ط01، 1439هـ- 2017م، ص425.
[15]- جمال الدين عبد الهادي، دفع الريب عن عرض أمير العرب، ص131.
[16]- جمال الدين عبد الهادي، دفع الريب عن عرض أمير العرب، ص131.
[17]- المصدر نفسه، ص133.
[18]- م ن، ص134.
[19]- ينظر: نازك الملائكة، سيكولوجية الشعر ومقالات أخرى، دار الشؤون الثقافية، بغداد، د ط، 1993م، ص34.
[20]- جمال الدين عبد الهادي، دفع الريب عن عرض أمير العرب، ص131.
[21]- م ن، ص131.
[22]- حياة طيب الذكر الأمير علي بن الأمير عبد القادر ملك الأقطاع المغربية وسلطان الأرباض الجزائرية، طبع في مطبعة الترقي في دمشق عام 1918م، ص164-165.
[23]- جمال الدين عبد الهادي، دفع الريب عن عرض أمير العرب، ص131.
[24]- ابن عودة المزاري، طولع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا، تحقيق ودراسة يحي بوعزيز، دار الغرب الإسلامي، 1999، ج02، ص104 نقلا عن: ناصر الدين سعيدوني، عصر الأمير عبد القادر، مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، 2001م، ص205.
[25]- عشراتي سليمان، الأمير عبد القادر السياسي، قراءة في فرادة الرمز والريادة، دار الغرب للنشر والتوزيع، ط02، 2004م، ص107.
[26]- جمال الدين عبد الهادي، دفع الريب عن عرض أمير العرب، ص132.
[27]- المرجع السَّابق، ص79.
[28]- جمال الدين عبد الهادي، دفع الريب عن عرض أمير العرب، ص132.
[29]- الأمير عبد القادر، المواقف في الوعظ والإرشاد، تصحيح ومراجعة لجنة من علماء دمشق، مج01، ط02، 1966م، ص141.

[30]- عشراتي سليمان، الأمير عبد القادر السياسي ، ص49.
[31]- تهاني عبد الفتاح، السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط01، 2002م، ص16.
[32]- ناصر الدين سعيدوني، عصر الأمير عبد القادر، ص257.
[33]- جمال الدين عبد الهادي، دفع الريب عن عرض أمير العرب، ص132.
[34]- عز الدين إسماعيل، الأدب وفنونه –دراسة ونقد، دار الفكر العربي، القاهرة، د ط، 2013م، ص152.
[35]- جمال الدين عبد الهادي، دفع الريب عن عرض أمير العرب، ص132.
[36]- المصدر نفسه، ص132.
[37]- ناصر الدين سعيدوني، عصر الأمير عبد القادر، ص204.
[38]- المصدر السّابق، ص132.
[39]- بقبق الزهرة، الأمير عبد القادر في الأسر (1849-1852) ماجستير، معهد التاريخ، جامعة وهران، 2010م، ص47.
[40]- عز الدين إسماعيل، الأدب وفنونه، ص155.
[41]- جمال الدين عبد الهادي، دفع الريب عن عرض أمير العرب، ص132.
[42]- صم منور، الأمير عبد القادر وأحداث الستين 1860 من خلال الوثائق الفرنسية، رسالة دكتوراه دولة، وهران، 1971م، ص233.
[43]- جمال الدين عبد الهادي، دفع الريب عن عرض أمير العرب، ص132.
[44]- نزار أباظة، الأمير عبد القادر الجزائري العالم المجاهد، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، دار الفكر، دمشق، سورية، ط01، 1994م، ص34.
[45]- المرجع نفسه، ص34.
[46]- جمال الدين عبد الهادي، دفع الريب عن عرض أمير العرب، ص133.
[47]- مُحَمَّد صابر عبيد، تمظهرات التشكل السير الذاتي، ص307.

قائمة المصادر والمراجع:

01- إحسان عباس، فن السيرة، دار صادر، بيروت، دار الشروق، عمان، ط01، 1996م.
02- بقبق الزهرة، الأمير عبد القادر في الأسر (1849-1852) ماجستير، معهد التاريخ، جامعة وهران، 2010م.
03- تهاني عبد الفتاح، السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط01، 2002م.
04- جمال الدين عبد الهادي، دفع الريب عن عرض أمير العرب، مجلة موازين، مج01، ع01.
05- حياة طيب الذكر الأمير علي بن الأمير عبد القادر ملك الأقطاع المغربية وسلطان الأرباض الجزائرية، طبع في مطبعة الترقي في دمشق عام 1918م.
06- شعبان عبد الحكيم مُحَمَّد، السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث رؤية نقدية، مؤسسة الوراق للنشر والتوزيع، دار عماد الدين للنشر والتوزيع، الأردن، ط01 ،2015م.
07- صم منور، الأمير عبد القادر وأحداث الستين 1860 من خلال الوثائق الفرنسية، رسالة دكتوراه دولة، وهران، 1971م.
08- عبد العزيز شرف، أدب السيرة الذاتية، مؤسسة الأهرام للنشر والتوزيع، القاهرة، ط01، 1998م.
09- عبد القادر محي الدين بن مصطفى، المواقف في الوعظ والإرشاد، تصحيح ومراجعة لجنة من علماء دمشق، مج01، ط02، 1966م.
10- عبد اللطيف الحديدي، فن السيرة بين الذاتية والغيرية في ضوء النقد الحديث، ذار السعادة للطباعة، القاهرة، ط01، 1996م.
11- عبد الله عبد الرحمن الحيدري، رواية السيرة الذاتية، مجلة علامات في النقد، مج13، ج49، سبتمبر 2003م.
12- عز الدين إسماعيل، الأدب وفنونه –دراسة ونقد، دار الفكر العربي، القاهرة، د ط، 2013م.
13- عشراتي سليمان، الأمير عبد القادر السياسي، قراءة في فرادة الرمز والريادة، دار الغرب للنشر والتوزيع، ط02، 2004م.
14- عماد عمي الخطيب، في الأدب الحديث ونقده عرض وتوثيق وتطبيق، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، عمان، ط02، 2011م.
15- مُحَمَّد صابر عبيد، تمظهرات التشكل السير الذاتي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، د ط، دمشق، 2005م.
16- مُحَمَّد مطالقة، السيرة الشعرية في الأدب الأردني المعاصر، رسالة ماجستير، جامعة جدارا، .2010
17- مساعد بن سليمان الطيار، نوح بن يحي الشهري، موسوعة التفسير المأثور، مركز الدراسات والمعلومات القرآنية بمعهد الإمام الشاطبي، دار ابن حزم، بيروت، ط01، 1439هـ- 2017م.

18- نازك الملائكة، سيكولوجية الشعر ومقالات أخرى، دار الشؤون الثقافية، بغداد، د ط، 1993م.
19- ناصر الدين سعيدوني، عصر الأمير عبد القادر، مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، 2001م.
20- ندى محمود مصطفى الشيب، فن السيرة الذاتية في الأدب الفلسطيني (2002 1992) درجة الماجستير في اللغة العربية بكلية الدراسات العليا نابلس، فلسطين، 2006م.
21- نزار أباظة، الأمير عبد القادر الجزائري العالم المجاهد، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، دار الفكر، دمشق، سورية، ط01، 1994م.
22- يحي إبراهيم عبد الدايم، الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، د ط، د ت.